المجدد جمال الدين الأفغاني

وإصلاحاته في العالم الإسلامي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أفضل الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه الغرّ الميامين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد :

البشرية في كل عصر مدينة بالتقدير وعرفان الجميل لمن يصحح مسيرتها ، ويبعث فيها روح النهضة ، والسير لبناء الحضارة والمدنية ، وإصلاح الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ويظل هذا المعروف والنصح مطوقاً أعناق الناس ، فيذكرونه بالفضل ، وتقدير المبادرة إلى اليقظة ، والانتباه إلى مخاطر الأوضاع المتردية ، ومخاوف المستقبل ، وملاحظة شروره وآثاره الضارة على الحياة والأجيال المتلاحقة ، علماً بأن المصلح أو الحكيم لا يملك إلا الكلمة الواعية الهادفة ، والعمل بإخلاص لأمته ، وإدراك ما يتفتح عنه العقل اليقظ المدبِّر ، قبل استفحال النتائج .

ولقد ابتليت الأمة الإسلامية في القرن الثالث عشر الهجري ، التاسع عشر الميلادي ، بعقدة التخلف وظاهرة التأخر ، في مواجهة النهضة الصناعية في الغرب ، وما عانته من تآمر الغرب والشرق على تصفية الخلافة العثمانية ، وتسوية ما سموه بالمسألة الشرقية[1] ، فقطّعوا أوصال

(١) أطلق المؤرخون اسم المسألة الشرقية على مجموع المشكلات التي تتعلق بالدولة العثمانية ، والتي مرت بدورين بارزين : دور نهوض الدولة العثمانية وهجومها =

وحدة العالم الإسلامي ، وفرقوا الأمة ، وقسَّموا البلاد إلى كيانات ودول ضعيفة صغيرة ، وأبعدوا تأثير الإسلام عن الوجود الدولي ، وحجبوا معاني القرآن الكريم ومفاهيمه عن الفكر السياسي الداخلي والخارجي ، واستغلوا مظاهر الضعف والتأخر لدى المسلمين ، وساعد كلَّ ذلك سوءُ الوضع الداخلي للخلافة العثمانية ، وظهور البواعث القومية ، وهذه المحنة أعظم وأخطر داهية أصابت المسلمين في العصر الحاضر ، كما يرى المحللون المتعمقون في مشكلات العالم الإسلامي المعاصر .

وفي هذه الآونة من التمزق والانقسام ، والتخلف والضعف ، والركود والخمول ، ظهر مجدد القرن الرابع عشر الهجري ، وباعث النهضة ، وداعية الإصلاح ، ونصير الحرية والعدالة والتحرر من نير الاستعمار في مختلف البلاد الإسلامية ، ألا وهو المجدد الحكيم الثائر السيد جمال الدين الأفغاني محمد بن صفدر (١٢٥٤ـ١٣١٤ هـ ـ ١٨٣٨ـ١٨٩٧ م) في ٩ آذار (مارس) حيث توفي بعد مرض عضال ألمَّ به وهو السرطان[١] .

ولكنه ترك آثاراً بعيدة المدى في حقل الإصلاح الديني والسياسي ، والفكري والعلمي ، والاجتماعي ، والاقتصادي ، في الأقطار الإسلامية ، وخلَّف قادة مدرسة إصلاحية ، ماتزال مبادئها ، ومطامحها ، وغاياتها ، ومناهجها ، موضع ريادة وتقدير ، في

= على أوربة ، فكان يقصد به اتحاد أوربة المسيحية ضد الخطر العثماني الإسلامي ، ودور ضعف الدولة ، فصار معناه : اتفاق الدول الأوربية على الإجهاز على هذه الدولة . ولكن تضارب المصالح الأوربية جعلها تختلف فيما بينها ، فيقف بعضها مدافعاً عن العثمانيين ، وبعضها يحاول إضعافها إلى النهاية وتصفيتها .

(١) الأعلام للزركلي ٧/ ٣٧ .

الجامعات والحياة التحررية ، التي آذنت بطلوع شمس الحرية ، والاستقلال ، والتخلص من كابوس الاستعمار الحديث ، والتدخل الأجنبي ، ومواجهة المحتل عسكرياً وفكرياً ووطنياً ، وكان لأفكار الأفغاني امتداد جذري عميق في كل أنحاء البلاد الإسلامية ، وظهور حركات التحرر ، وولادة الأحزاب الوطنية ، وقيام دعوات الإصلاح والتجديد ، بطريق مباشر وغير مباشر ، ومنها مدرسة الشيخ محمد عبده وتلامذته ، والدعوة السلفية أو الوهابية في نجد ، والدعوة السنوسية في ليبيا (بنغازي وطرابلس) ثم الجزائر ، والدعوة المهدية في السودان .

وبحثي هذا[1] يتناول آثار الأفغاني الإصلاحية في المجالات الآتية لتحقيق هدف واحد ، ألا وهو توحيد كلمة المسلمين :

- أثره في الإصلاح الديني .
- أثره في الإصلاح السياسي .
- أثره في الإصلاح الفكري والعلمي .
- أثره في الإصلاح الاجتماعي .
- أثره في الإصلاح الاقتصادي .

وكانت منطلقات نشاطه الخصب أو الثَّرّ ، وجهاده الدائم في سبيل الإصلاح والتجديد ثلاثة أمور :

- قوة شخصيته وجرأته وشجاعته .
- عقيدته في الحق والعدل المجرد .
- تعطشه للحرية وكراهية الاستبداد .

---

(١) قدم لندوة « السلطان عبد الحميد الثاني والإسلام الحر » في الفترة ٧-٨ حزيران « يونيو » ١٩٩٧ م بمناسبة مرور مئة سنة على وفاة الأفغاني .

أثر الأفغاني في الإصلاح الديني

كان قرن الأفغاني في الفكر الديني متسماً بالجمود ومدارسة القديم في حلقات التعليم في الأزهر وغيره ، ولم يكن لدى العلماء في ذلك العصر تفتح على الحياة المعاصرة ، ولا تفاعل مع مقتضيات النهضة الصناعية في الغرب ، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي ، ولا التفات لمخاطر الظلم والاستعباد والاستبداد ، وتدخل المستعمرين في شؤون المسلمين الداخلية والخارجية .

وكان دورهم مقصوراً على فهم القديم ، وحفظ النصوص ، وتحليل العبارات ، دون استيعاب لمقاصد الشريعة وروح التشريع ، ولا استعداد لجهاد الظالمين والغاصبين والمحتلين ، ولا لتوجيه العزائم والهمم لبناء نهضة قوية في مجال المال والصناعة والاقتصاد ، لمنافسة الغرب .

وكان العالم الشهير ، ولو في مركز شيخ الإسلام في الآستانة أو مصر ، يجمد على ظاهر الكلمة ، فيبادر إلى نقد الأفغاني وأمثاله ، واتهامه بالكفر والضلال ، وهدم الإسلام ، إما بدافع الحسد ، وإما لضيق الفكر ، والجهل بأحوال ومفاهيم العصر ، مثل تسرع شيخ الإسلام أبي الهدى الصيادي في إستانبول في عهد السلطان عبد الحميد باتهام الأفغاني بالكفر والزندقة ، لقوله مرة يصف جمالَ مكانٍ بعبارة شاعرية : « أنا أطوف بأشجار البندلر طواف الحجيج بالكعبة » . ومثل تسرّع المحافظين على القديم في مصر في دروسهم بالطعن في منهج الأفغاني بدراسة كتب

الفلسفة ، أخذاً بقول بعض العلماء في القرن السابع كابن صلاح (٦٤٣ هـ) والنووي (٦٧٦ هـ) بتحريم المنطق والنظر في الكتب الفلسفية ، ونسبوا ما فيها من ضلالات للأفغاني[١] حتى اضطر هذا الرجل للدفاع عن نفسه إلى المطالبة بمحاكمة شيخ الإسلام حسن فهمي أفندي لأنه طعن في عقيدته بالباطل ، وأصر على طلب هذه المحاكمة ، ولم يسمع لمن نصحوه بالهدوء والترفق ، حتى اشتد الثائرون عليه من علماء الدين ، فرأت الحكومة لتهدئة الفتنة إصدار أمر له بالرحيل عن إستانبول ، فرحل إلى مصر سنة ١٢٨٨ هـ/ ١٨٧١ م[٢] .

ولم تكن أفكار الأفغاني إلا من إبداع الفكر ، وجولان العقل في الكون وأسراره ، بحسب المنهج القرآني في ضرورة التأمل في خلق السموات والأرض ، وفهم أسرار الحياة ، وتفسير مجاهيل المعلومات العلمية .

ويتضح هذا في أسلوبه العلمي النير في « رسالة الرد على الدهريين » التي تفرغ لوضعها في زيارته للهند في المرة الثالثة ، حيث تجد فيها الأدلة والبراهين النيرة في تثبيت الإيمان والعقيدة ، والرد على دعاة نبذ الأديان ، والتحلل من أصول الإيمان ، وبيان مذاهب الحكماء والفلاسفة في حقيقة الوجود ، والرد على المنحرف أو الضالّ منها ، وتفنيد نظريات الماديين أو الطبيعيين .

ـ ومن ردوده أن الرادع للنفس والمانع لها من تجاوز حدود الاعتدال أحد أمور أربعة :

---

(١) الحكيم الثائر جمال الدين الأفغاني ، للأستاذ المغفور له محمد سلام مدكور : ص ٣٥ ، ٩٣ .

(٢) المجددون في الإسلام من القرن الأول إلى القرن الرابع عشر ، للشيخ عبد المتعال الصعيدي : ص ٤٩٢ .

١ـ **المدافعة الشخصية** : وهذا لون بدائي يؤدي لفناء الإنسان .

٢ـ **شرف النفس** : وهذا يختلف باختلاف البلاد والأعراف ، حيث يكون الأمر خسيساً عند بعض الناس ، ورفيعاً عند آخرين .

٣ـ **الحكومة** : وهي لا تكف إلا العدوان الظاهر .

٤ـ **الاعتقاد بالألوهية** : وهو الحصن المنيع والوحيد لمقاومة الأهواء والشهوات ، فإن الإيمان بأن للعالم صانعاً عالماً بمضمرات القلوب ، وأنه قدَّر للخير والشر جزاءً يلقاه في الآخرة ، يكبح جماح النفس عن الشهوات ، ويمنع العدوان ، ويمحو أثر الغدر ، وهو الدرع الواقي من الظلم وتجاوز الحد ، والوسيلة لإحقاق الحق ودحر الباطل ، ودون الإيمان على هذا النحو لا تصلح حياة الناس الاجتماعية ، ولا تستمر المدنية ، وإنما تكون الهيمنة للرذائل ووساوس الشياطين .

ـ ومن مبادىء الأفغاني قوله : « إن الإسلام والذل لا يجتمعان في قلب واحد » .

وساء الأفغاني ما وجد عليه علماء الإسلام من ضعف الإرادة ، وفقد العزيمة ، والاستكانة للآخرين ، مع مخالفته صراحة لتعاليم الدين الحنيف الذي يدعو أهله إلى الاعتزاز بالكرامة ، والجرأة في الحق ، والإخلاص في العمل ، وترك الكذب والنفاق والتملق ، ونحو ذلك من الأمور الخسيسة التي تتنافى مع الإنسانية الراقية ، ولا تستقيم مع الحياة الحرة الشريفة .

ـ وقد شغف هذا المصلح برؤية الإسلام عزيزاً كريماً ، والمسلمين أعزة شرفاء ، وهو يتطلع بثاقب نظره لإحياء مجد الإسلام وخدمة المسلمين .

ـ وكان يعلن أن الإسلام دين العقل والنظر والنقاش ، وأن إيمان

المسلم لا يصح إلا بالاعتماد على الدليل والبرهان القاطع أن الله واحد لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، ويؤسفه أن يجد بين العلماء وبين الفلسفة الرشيدة ، لا الهرطقة سداً منيعاً ، وبعداً واضحاً .

ـ واجتهد في المنهج العلمي على أساس الجمع بين الأصالة والتمسك بالثوابت ، وبين معطيات العلم العصري ، لأنه يدرك أن فهم القرآن الكريم والسنة النبوية على نحو صحيح وتأويل سديد ، كفيل بإحداث تطور عظيم ، وانقلاب حضاري ومدني رفيع .

وقد استطاع الأفغاني بهذا الأسلوب أن ينفخ في الأزهريين روح اليقظة والتجديد ، حتى أصبح الأزهر قلعة لنهضة دينية وعلمية وإصلاحية ، مايزال إلى الآن يترسم خطاها .

وأدى ذلك إلى ظهور علماء معاصرين ، أدركوا مرامي الإسلام ، وجمعوا بين الدين والعلم العصري والمدنية ، وأن الترقي والتقدم والمدنية هي من أصول الإسلام وصميم مبادئه ودعوته .

وتجلى أثر هذه الجهود في أن يقاوم الأزهريون الحكام المستبدين ، وأن ينتقدوا شيخ الأزهر الشيخ محمد العباس في عدم إصداره فتوى لمصلحة النظام الدستوري ، وأن ينتخب الطلاب الشيخ محمد عليش المتوفى سنة ١٢٩٩ هـ لمشيخة المالكية ، خلافاً لما جرت به العادة من أن الحاكم هو الذي يعين مشايخ المذاهب ، وكان هذا الشيخ معروفاً بالصراحة والوطنية ، حتى إنه أفتى بخلع الخديوي إسماعيل ، وأنه لا يصلح لولاية المسلمين ، لبيعه البلاد للأجانب ، وإطاعته إشارات قناصل أوربة .

ولقد وعى الأفغاني الإسلام وعياً صحيحاً ، وتعمق في فهم القرآن والسنة ، فركز على تصحيح العقيدة ، وعلى توفير الساحة العملية لتكون

ظاهرة نظيفة من التدخل الأجنبي ، وبثّ في طلابه وأصدقائه روح الوطنية وحب الحرية ، ووجوب التألب على الحكم الاستبدادي في مصر الذي أدى للضعف والتخلف ، وأطمع الأجانب في الاستيلاء على البلاد ، ولم يهمه في هذا ما كان من إكرام الخديوي إسماعيل باشا له ، لأنه كان يؤثر المصلحة العامة على المصلحة الخاصة[١] .

* * *

(١) المجددون في الإسلام ، المرجع السابق : ص ٤٩٢ .

أثره في الإصلاح السياسي

الدين والسياسة في تقدير الأفغاني أمران متلازمان لا ينفصلان ، والإصلاح الديني والدعوة إليه في مصر والآستانة وغيرهما من البلاد الإسلامية يجب أن يترافق مع الإصلاح السياسي .

ويرى هذا الحكيم المجاهد أن حب الأوطان أو الوطنية والتحرر من النفوذ الأجنبي ، من صميم الإسلام ، لذا كان يكره الإنجليز المستعمرين كراهية شديدة ، ويعمل من أجل ذلك على تحرير مصر والهند وأفغانستان من الاستعمار الإنجليزي ، وعلى كشف سياسة إنجلترا ومطامعها ، وأساليبها في الدس والتفريق التي عرفت بها ، فقام بنشاط واسع المدى في البلاد للتحريض عليها .

فبعد أن أدى فريضة الحج سنة ١٢٧٣ هـ/ ١٨٥٧ م ، وبعد أن مكث في الهند سنة وبضعة أشهر يتعلم الإنجليزية ، كما تعلم الفارسية والتركية من قبل ، عاد إلى أفغانستان وطنه الأصلي وبلد النشأة والميلاد[١] ، فأخذ يبث في الشعب الأفغاني مبادئ الوطنية وروح الحرية ، وتقلّد بعض المناصب ، حتى وصل إلى منصب كبير الوزراء في عهد « محمد أعظم »

(١) الراجح أنه ولد سنة ١٢٥٤ هـ/١٨٣٨ م بأسعد آباد من أعمال كابل قاعدة أفغانستان ، ودرس في مدارسها القديمة علوم العربية والتاريخ والإنشاء والعلوم الدينية والفلسفية على اختلاف أنواعها ، ثم رحل إلى الهند فدرس فيها بعض العلوم الحديثة . (تاريخ محمد عبده ١/ ٢٧) ، ويقول الإيرانيون : إنه ولد في إيران ، وهو إيراني .

وهو لم يتجاوز السابعة والعشرين حينئذ ، لينهض ببلاد أفغانستان ، لكي تقوى على مقاومة الإنجليز وغيرهم ، فحرَّض الناس ضد الإنجليز ، وبدأ الغليان والتمرد في أنحاء أفغانستان ، وعمل الإنجليز على إثارة الفتن ، حتى تمكنوا من عزل الأمير محمد أعظم ، وتولية أمير آخر يرضون عنه .

دأب جمال الدين على إثارة الشعب الأفغاني على الإنجليز والأمراء المستبدين ، وبث فيهم حب الوطنية والحرية ، ليقضوا على نفوذ الإنجليز في بلادهم ، واستمر يكافح الدسائس ، ويكتشف المؤامرات التي تدبر لاغتياله[1] .

ثم رأى جمال الدين أن يفجر ثورة عامة على الإنجليز وغيرهم ، فرحل إلى الهند ، وأخذ يدعو إلى الإصلاح الديني والسياسي والعلمي والاجتماعي بين أهلها ، حتى ضاق الإنجليز به ، ونفوه إلى مصر سنة ١٢٨٦ هـ/ ١٨٧٠ م .

وقال لمن كان حاضراً معه حين تبليغه الإنذار بالرحيل عن الهند :

« يا أهل الهند ، وعزة الحق ، وسر العدل ، لو كنتم وأنتم تُعدُّون بمئات الملايين ذباباً ، مع حاميتكم البريطانيين ومن استخدمتهم من أبنائكم ، فحملوا سلاحها لقتل استقلالكم واستنفاد ثرواتكم ، وهم بمجموعهم لا يتجاوزون عشرات الألوف . لو كنتم أنتم مئات الملايين ـ كما قلت ـ ذباباً ، لكان طنينكم يصم آذان بريطانيا ، ويجعل في أذن كبيرهم وَقْراً ، ولو مسخكم الله ، فجعل كلاً منكم سلحفاة ، وخضتم البحر ، وأحطتم بجزيرة بريطانيا ، لجررتموها إلى قاعه ، وعدتم إلى هندكم أحراراً » .

---

(١) المجددون في الإسلام : ص ٤٩١ ، الحكيم الثائر جمال الدين الأفغاني ، للأستاذ محمد سلام مدكور : ص ١٨ـ١٩ .

وفي مصر تابع الأفغاني نشاطه ودعوته ضد الإنجليز ، ونشر في جريدة « مصر » فصولاً مطولة ناطقة بعداوته للإنجليز ، وعمل على تأليف « الحزب الوطني » سنة ١٨٧٩ م للعمل على طرد الإنجليز ، وانضم للحزب كثير من العلماء والنواب ، مثل الشيخ محمد عبده ، وعبد الله نديم ، ومحمود البارودي ، وأعضاء مجلس شورى النواب .

ومن مبادىء الحزب : تعميم التعليم في مصر ونشر الثقافة ، ويتطلب هذا حرية المطبوعات ، والمطالبة بإطلاق الحريات الكافية للنواب ، وتقوية الجيش وزيادته ، وإصلاح البلاد مادياً وأدبياً ، ولا يكون ذلك إلا بحفظ الشرائع والقوانين ، وتوسيع نطاق المعارف ، وإطلاق الحرية السياسية التي هي حياة الأمة .

واعتبر الحزب الوطني الذي أسسه مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ م الوارث الوحيد المباشر للحزب الوطني القديم ، حيث كان هناك اتصال بين الأفغاني ومصطفى كامل . وكانت ثورة أحمد عرابي في مصر على الخديوي توفيق باشا ، والحركة الوطنية التي تزعمها سعد زغلول ضد الإنجليز من آثار دعوة الأفغاني لمحاربة الإنجليز وطردهم من مصر .

وشرح الإمام محمد عبده تلميذ الأفغاني المقصد السياسي لأستاذه قائلاً : إنه كان يسعى لإنهاض إحدى الدول الإسلامية من ضعفها وتنبيهها للقيام على شؤونها ، حتى تلحق بالدول القوية ، فيعود للإسلام شأنه ، وللدين الحنيف مجده ، ويدخل في هذا تكيس دولة بريطانيا في الأقطار الشرقية ، وتقليص ظلها عن رؤوس الطوائف ، وله في عداوة الإنجليز شؤون يطول بيانها .

وفي فرنسا : قام الأفغاني في سنة ١٣٠٢ هـ/ ١٨٨٤ م بإنشاء « جمعية العروة الوثقى » وإصدار « مجلة العروة الوثقى » لتدعو المسلمين إلى

النهوض في دينهم ودنياهم ، وتحرضهم على الثورة على المستعمرين لبلادهم ، ولاسيما الإنجليز الذين استعمروا كثيراً من بلاد المسلمين ، كما تحرضهم على الثورة على المستبدين من ملوكهم ، ليكونوا أحراراً في بلادهم ، ويمكّنهم من النهوض بما بقي منها في أيديهم .

ثم عمل المستعمرون على إجهاض نشاط هذه المجلة ، وقضوا عليها بعد ظهور عشرة أجزاء منها .

وكانت مقاصد العروة الوثقى أربعة : الجامعة الإسلامية ، الرابطة الشرقية ، المسألة المصرية ، المسألة السودانية[١] .

وفي إيران : دعا سلطان فارس ناصر الدين شاه جمال الدين ، فسافر إليها سنة ١٣٠٣ هـ/١٨٨٦ م ، فأكرمه هذا السلطان ، وقربه إليه ، وعينه وزيراً للحربية ، على أن يجعله بعد هذا رئيساً لوزرائه ، فقام بدعوته الإصلاحية في فارس ، وفي معاداة الإنجليز ، وارتحل من فارس إلى روسيا ، لما خشي منه السلطان لمتابعة دعوته الإصلاحية .

وفي العراق : أنشأ مجلة « ضياء الخافقين » نهج فيها منهج مجلة العروة الوثقى ، وأخذ يؤلب الأحرار من الفرس على سلطان فارس ناصر الدين شاه ، حتى قتله أحدهم .

ثم سافر الأفغاني إلى إستانبول سنة ١٢٨٧ هـ/١٨٧٠ م فاستقبله السلطان عبد العزيز والحكومة ، واستطلعوا رأيه الديني والسياسي .

ثم دعاه السلطان عبد الحميد سنة ١٣١٠ هـ/١٨٩٢ م إلى إستانبول ، فقرّبه منه ، وجعل يستشيره في شؤون الدولة ، وفي معرفة مخططات الأعداء من الإنجليز والأوربيين ، إلى أن توفي في إستانبول سنة ١٣١٤ هـ/١٨٩٧ م .

---

(١) تاريخ الإمام الشيخ محمد عبده ١/ ٢٨١ ، ٣٠٦ وما بعدها .

إن أنشطة الأفغاني وحركاته ورحلاته في البلاد تتركز في الجانب السياسي على محاربة الاستعمار الغربي البريطاني ، والاتجاه الاستعماري في التفكير ، وتحرير الوطن الإسلامي من الاستعمار ، مع اتخاذ وسائل تحقيق هذا الهدف ، والقيام بثورة علنية تعتمد على القوة ، لا على مجرد الكلام[١] .

١ـ أما تحرير الوطن الإسلامي من الاستعمار الغربي : فيعتمد على استرجاع قوة المسلمين في تكتلهم ، واستعادة الجامعة الإسلامية الواحدة ، وتوحيد كلمة المسلمين وجمع شملهم ، بتأسيسه « جمعية أم القرى » في مكة المكرمة .

ويتم ذلك بطرح ما طرأ على الإسلام من عادات غريبة في السلوك ، وأفهام سقيمة في شرح تعاليمه ، وبالرجوع إلى الإسلام الأول في استلهامهم التوجيه المباشر منه ، وقال عن الشرق : إنه في حاجة إلى حاكم قوي عادل ، ولا يمكن أن تحيا مصر ولا يحيا الشرق إلا إذا أتاح الله لكل منهم رجلاً قوياً عادلاً يحكمه بأهله . ثم قال : إذا صح أن من الأشياء ما ليس يوهب ، فأهم هذه الأشياء الحرية والاستقلال[٢] .

٢ـ وأما محاربة الاتجاه الاستعماري في التفكير : فبالوقوف في وجه الشبه التي تثار ، والتخريبات المغرضة لنصوص مَصْدري الإسلام : القرآن والسنة الصحيحة ، وبيان زيفها بالأسلوب العلمي والتاريخي ، وتصحب ذلك محاولة تقريب الإسلام من العقلية الجديدة ، وتوضيح أن

---

(١) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي للدكتور محمد البهي : ص ٩٢ وما بعدها ، الاتجاهات الحديثة في الإسلام للمستشرق الإنجليزي جيب : ص ٥٥ وما بعدها .

(٢) جمال الدين الأفغاني للأستاذ محمد سلام مدكور : ص ٣٨ .

هذه المبادىء هي لتوجيه الإنسان توجيهاً سليماً ، نظرياً وعملياً ، في أي عصر قديم أو حديث .

٣ـ **التعبئة العامة للشعوب الإسلامية** على أساس من دينها ، لا على أساس من مذاهب الطوائف فيها .

٤ـ **الدين لسيادة المؤمنين به** ، وعلى المؤمنين أن يحافظوا عليه ، ويتمسكوا به ، ويدافعوا عنه لتبقى لهم السيادة .

منهج تنفيذ هذه المبادئ :

برز نشاط الحكيم المجاهد الأفغاني في مقاومة الاستعمار في ناحيتين هما : الرد على الدهريين في الهند ، ومحاربة الاستعمار البريطاني[١] .

ـ أما الرد على الدهريين في الهند : وهم الماديون جماعة السيد أحمد خان في الهند الذي نادى بأن لا وجود إلا للطبيعة العمياء ، وليس لهذا الكون إله حكيم ، وأن جميع الأنبياء كانوا طبيعيين ، لا يعتقدون بالإله الذي جاءت به الشرائع ، ولقب نفسه : الطبيعي .

وهذه الجماعة مظهر من مظاهر الاستعمار الذي يسعى لإفساد عقيدة المسلمين بالتشكيك فيها أو بالصرف عنها ، ومحاولة جعل الولاء لبريطانيا من تعاليم الإسلام ، وإبقاء البريطانيين مستعمرين الهند .

ردَّ الأفغاني في رسالته « الرد على الدهريين » أثبت فيها أن الدين أساس المدنية وقوام العمران ، وأبان أن هؤلاء الدهريين يختلفون عن الدهريين في أوربة بأنهم كما يدعون الناس إلى نبذ الدين ، يهوّنون عليه

---

(١) الدكتور محمد البهي ، المرجع السابق : ص ٦٧ وما بعدها ، المستشرق جب في المرجع والمكان السابق .

مصالح أوطانهم ، ويسهّلون على الناس تحكم الأجنبي فيها ، ويجتهدون في محو آثار الغيرة الدينية والجنسية ، وهكذا يمتاز دهري الشرق عن دهري الغرب بالخسة والدناءة ، بعد الكفر والزندقة[١] .

ويتلخص رده على الدهريين بثلاثة أمور : بيان ضرورة الدين للمجتمع ، وأضرار المذهب الطبيعي على المجتمع ، ومزية الإسلام بصفته عقيدة وديناً على الأديان الأخرى[٢] .

أما كون الدين واجباً للمجتمع :

فقد عبّر عنه الأفغاني بقوله : إن الطبيعة لم تحدد طريقاً معيناً لتحقيق شهوات الإنسان ، فيكون طريقها : إما السيف والقوة ، وهذا يفضي إلى سفك الدماء والتخريب ، وإما شرف النفس ، وهو محدود بالعرف والعادة ، وليس له مقياس عام ، وإما الحكومة : وهي لا تعرف إلا الاعتداءات الواضحة ، وإما الاعتقاد بمدبّر الكون ومالك الجزاء في الآخرة ، وذلك هو المتعين .

والعقيدة الدينية تكفل للمجتمع ثلاثة عناصر أساسية :

هي الحياء والأمانة والصدق ، ووهم الدهري لا يجتمع مع هذه الفضائل ، والدين ينظم الروابط الاجتماعية ، فهو السبب المتعين لسعادة الإنسان .

وأما أضرار المذهب الطبيعي :

فكثيرة ومتنوعة الأمثلة من تاريخ الأمم ، التي برز فيها هذا المذهب بصور متعددة على النحو الآتي :

---

(١) البهي ، المرجع السابق : ص ٢٨ وما بعدها .
(٢) البهي ، ص ٦٨ وما بعدها .

ـ إن حياة الشعب الإغريقي فسدت بإباحية المذهب الأبيقوري ، كما فسدت حياة الشعب الفارسي بالتأثر بمذهب مزدك .

ـ وفسدت حياة المسلمين في القرن الرابع الهجري ، حينما دخلت عليهم الباطنية بمصر ، وكانت هي التي مهدت للحرب الصليبية وحرب التتار .

ـ وانحلت أخلاق الفرنسيين ، واشتعلت نار الثورة الفرنسية ، بظهور آراء فولتير وروسو ، اللذين سخرا من الدين والإله ، ولم يعد يُجْدي ما صنعه نابليون في إعادة المسيحية ، كما لم يُجْد انتصار صلاح الدين على الصليبيين في إعادة الإسلام إلى مجده الأول .

ـ وخان بعض قادة العثمانيين في الحرب الروسية ـ التركية سنة ١٨٧٧ـ١٨٧٨ م في البلقان ، لزحزحة الأتراك بصفتهم مسلمين ، عن شبه جزيرة البلقان وبلاد اليونان ، لتأثرهم بالمذهب الطبيعي ، أو تبنيهم مذهب « العصر الجديد » كما خان أعضاء بعض الجمعيات الإسلامية[1] ملتهم ، بسبب هذه الأفكار .

وأفسدت أوربة والشعب الروسي مذاهب الاشتراكية أو القومية ، أو الاجتماعية بتحطيم الامتيازات الإنسانية كافة ، وإباحة الكل للكل ، وباعتقاد منحة الطبيعة لجميع ما على الأرض ، وبأن الدين والملكية عقبتان عظيمتان أمام نشر هذه المبادئ التي تتنافى مع الفطرة والجهد الإنساني .

وأما مزية الإسلام :

فإنها كما قال الأفغاني : مزية فريدة ، فهو في مقدمة الأديان من حيث

---

(١) جمعية الاتحاد والترقي .

حاجة البشرية إليه ، لأن له مزايا ليست متوافرة في دين آخر .

أولها ـ أنه صقل العقول بصقال « التوحيد » ، وطهرها من لوث الأوهام ، وذلك يحول دون اعتقاد أن كائناً من الكائنات ، له تأثير نفع أو ضر ، كما يحول دون اعتقاد أن الله يظهر بلباس البشر ، أو حيوان آخر ، أو أن تلك الأوهام في ديانات البرهمية في الهند ، والبوذية في الصين ، والزرادشتية (المجوسية) في فارس .

ثانيها ـ أنه تحقق امتياز الأجناس ، وتفاضل الأصناف ، وقرر المزايا البشرية على قاعدة الكمال العقلي والنفسي ، لا غير ، فالناس إنما يتفاضلون بالعقل والفضيلة ، وهذا لا نجده في أديان أخرى ، فالبرهمية قسمت الناس إلى طبقات ، واليهودية فضّلت شعب إسرائيل على بقية الشعوب .

ثالثها ـ جعل الإسلام العقيدة قائمة على الإقناع ، لا على التقليد ، واتباع ما كان عليه الآباء .

رابعها ـ أوجد المعلم ليؤدي عمل التعليم ، وأقام المؤدب الآمر بالمعروف ، والناهي عن المنكر ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٢] .

فإن اعتُرض على الإسلام بحال المسلمين السيئة ، فجوابه : أن المسلمين بلغوا بدينهم ما بلغوا ، والعالم يشهد ، ويكفي القول بهذا النص الشريف : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١] .

ـ **وأما محاربة الاستعمار البريطاني** : فإن الأفغاني وجه كفاحه إلى

الاستعمار البريطاني بخصوصه ، نتيجة احتكاكه المباشر به في مصر والسودان والهند . وكان ذلك عن طريق المقالات السياسية ، التي ينشرها في مجلة « العروة الوثقى » ضد الاستعمار الغربي[١] ، بوساطة شرح الآيات القرآنية ، أو الأحاديث الصحيحة ، مما جعل كفاحه السياسي على أسس إسلامية ، وقد صدر من هذه المجلة ثمانية عشر (١٨) عدداً في ثمانية أشهر ، من ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١ هـ إلى ٢٦ ذي الحجة سنة ١٣٠١ هـ .

أما في مصر : فقد أبعد الأفغاني عنها سنة ١٢٩٦ هـ/ ١٨٧٩ م في عهد الخديوي توفيق ، بمشورة القنصل الإنجليزي ، بعد أن نشر فيها الدعوة إلى الإصلاح ، وأوجد رجالاً فيها يقومون بعده ، كالإمام محمد عبده ، وكانت التهمة الموجهة إليه أنه يرأس « جمعية من الشبان ذوي الطيش تجتمع على فساد الدين والدنيا » .

وصوَّر الأفغاني في المقال الافتتاحي لأول عدد من جريدة « العروة الوثقى » حادث الاحتلال البريطاني لمصر ، على أنه كارثة على العالم الإسلامي ، وأهاب بالمسلمين بباعث من دينهم ، أن يتكاتفوا لدفع بلاء هذا الاحتلال ، وتابع مقالاته في إيقاظ المسلمين بوحي من دينهم أن يتعاونوا على مقاومة المستعبد ، ونادى في الناس : « مصر للمصريين ، السودان جزء متمم لها »[٢] .

وأما احتكاك الأفغاني بالسلطة البريطانية في الهند : فتتضح في زياراته

---

(١) تاريخ الإمام محمد عبده ١/ ٣٣١ وما بعدها ، ٣٣٦ وما بعدها ، ٣٤٠ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ص ٢٩٤ وما بعدها ، ٣٣٢ ، ٣٦٥ ، ٣٧٠ـ٣٧٨ .

الثلاث لهذه البلاد ، ومن اضطراره إلى الرحيل من أفغانستان إلى الهند تحت ضغط الدسائس الإنجليزية[١] .

وفي الهند : ردَّ كما تقدم على الاتجاه الطبيعي أو الاتجاه العلمي التقدمي الذي حاول به السيد أحمد خان أن يجعل الولاء للإنجليز مشتقاً من تعاليم الإسلام ، وينشئ جيلاً يعاون الاستعمار باسم التقدمية في الإسلام ، ثم إنه شوّه الصلة بين زعيم هذا المذهب والبريطانيين في الهند ، على أساس من كشف رزايا الاستعمار في العقيدة والاقتصاد والاجتماع .

وصوّر الإنجليز في صورة الغاصب المستعبد ، ووجّه المسلمين إلى أن الركن الأعظم لدينهم ، يحتم عليهم إجلاء العدو عن ديارهم ، وطرح ولاية الأجنبي عنهم ، بل منازعة كل ذي شوكة في شوكته .

يتبين من هذا أن ولاية الأجنبي على المسلمين ، كانت محور الخصومة في الفكر الإسلامي ، في ظل الاستعمار الغربي ، بين محاول لقبولها ، وبين رافض إياها ، وأن جهود الأفغاني وكفاحه وثورته ، إنما هي انتصار للحق والحرية والعدل ، ورفض قاطع للباطل والاستعباد والظلم .

* * *

(١) المرجع السابق : ص ٣٥٩ ، ٣٨٤ .

أثره في الإصلاح الفكري والعلمي

كان الأفغاني رحمه الله مثال الرجل المسلم المجاهد الذي لا يهدأ ، والمغامر الذي لا يعرف التردد ، والمفكر العظيم الذي فهم الإسلام فهماً عميقاً ، والسياسي الداهية ، والحكيم الخبير الذي يدرك الأمور وخطورتها ، فيبادر إلى إصلاحها ، ويلاحظ انحراف الفكر والعلم ، فيصحح للمتعلمين الدرب ، ناقش الفلاسفة الغربيين مثل الفيلسوف الكبير الإنجليزي هربرت سبنسر ، وهانوتو ، وآرنست رينان ، فأفحمهم ، حتى قال « رينان » عنه بعد نقاش في موضوع فلسفي يذود عن الحق ، ويدفع الباطل ، ويدافع عن الضعفاء ، ويرفع الظلم[١] :

« يخيل إلي من حرية فكره ، ونبالة شيمه ، وصراحته ، وأنا أتحدث إليه أنني أرى وجهاً لوجه أحد من عرفتهم من القدماء الفلاسفة ، وأني أشهد ابن سينا ، أو ابن رشد ، أو أحد من عرفتهم من أساطين الحكمة الشرقيين ، الذين ظلوا خمسة قرون يعملون على تحرير الإنسانية من الإسار » .

ـ أحب جمال الدين الحكمة والفلسفة ، ووهب نفسه لخدمة الإسلام وترقية حال المسلمين ، وعمل على إنهاض الأمة فكرياً وعلمياً وسياسياً ، ونادى في بلاد فارس وغيرها بضرورة وضع الدساتير ، وبالحفاظ على ممتلكات الأمة .

---

(١) المرحوم الأستاذ محمد سلام مدكور ، المرجع السابق : ص ٦٨ .

وحينما زار فارس سنة ١٣٠٣ هـ/١٨٨٦ م بدعوة من الشاه : ناصر الدين شاه ، واستقبله الشاه استقبالاً باهراً مع الأمراء والعلماء والعظماء ، وعينه وزيراً للحربية ، ومستشاراً خاصاً للشاه ، قال للشاه ، بعد أن نكل عن قبول الدستور الذي قدمه له جمال الدين الأفغاني ، وقال الشاه له : « أيصح أن أكون وأنا ملك ملوك الفرس كأحد الفلاحين ؟ »

فقال جمال : اعلم يا حضرة الشاه أن تاجك ، وعظمة سلطانك ، وقوائم عرشك ، ستكون بالحكم الدستوري أعظم مما هي الآن ، والفلاح والعامل والصانع في المملكة ـ يا حضرة الشاه ـ أنفع من عظمتك ومن أمرائك ، واسمح لإخلاصي أن أؤديه صريحاً قبل فوات وقته . . لا شك ـ يا عظمة الشاه ـ أنك رأيت وقرأت عن أمة استطاعت أن تعيش دون ملك ، ولكن ، هل رأيت ملكاً عاش دون أمة ورعية ؟! » .

وبعد أن سافر إلى الآستانة سنة ١٢٨٧ هـ/ ١٨٧٠ م عين عضواً في مجلس المعارف بعد ستة أشهر من وصوله ، فقدم تعاليم جديدة وإصلاحات للمناهج مفيدة .

ـ أدرك الأفغاني أن تقدم الأمة لا يكون بغير العلم العصري ، مما يوجب تغيير أساليب التعليم ومناهج التدريس ، وقدر معطيات الفلسفة ، وأبان أن الإسلام دين العلم والعقل والنظر والمناقشة ، وأن المدنية الأصلية من صميم الإسلام ، وأن إعمال الفكر فيما يعود على الأمة بالتقدم والرقي ، وكتب مقالاً ضافياً عن الإنسان الراقي بعنوان « الإنسان الراقي ملاكٌ أرضي » جاء فيه :

مما يلزم الاعتقاد بأن الإنسان أشرف المخلوقات : ترفع المعتقِد بحكم الضرورة عن الخصال البهيمية واستنكافه عن ملابسة الصناعات الحيوانية ، ولا ريب أنه كلما قوي هذا الاعتقاد ، اشتد به النفور عن

مخالطة الحيوانات في صفاتها ، وكلما سما عقله أوفى على المدنية ، وأخذ منها بأوفر الحظوظ ، حتى قد ينتهي الحال إلى أن يكون واحداً من أهل المدنية الفاضلة ، يحيا مع إخوانه الواصلين معه إلى درجته على قواعد المحبة ، وأصول العدالة ، وتلك نهاية السعادة الإنسانية في الدنيا ، وغاية ما يسعى إليه العقلاء والحكماء فيها .

ـ وعلى الرغم من أن الأفغاني كان حنفي المذهب ، مع ميل إلى مذهب السادة الصوفية ، فإنه كان يسخر من القائلين بسد باب الاجتهاد ، ويبني عقيدته على أساس المنطق والحكمة العقلية ، ويناقش الأحكام بالعقل ، فإذا به يقر كل ما أمر الله به ، لا يفرط فيه قيد شعرة ، مطيعاً لله ولرسوله ولأئمة المسلمين ، ويلتزم الكتاب والسنة الصحيحة ، ولا يكاد أحد يساويه في حميته الدينية ، وغيرته على الدين وأهله ، وليس أحد أشد محافظة منه على أصول مذهبه وفروعه .

ـ تأثَّر بمبادئه وأفكاره تلميذه الشيخ محمد عبده ، فقال عنه مرة :

« أُوتيت من لدنك حكمة أقلب بها القلوب ، وأعقل بها العقول ، وأذل بها شوامخ المصاعب ، وأتصرف بها في خواطر النفوس ، ومُنحت من لدنك عزيمة أتعتع بها الثوابت ، وأصدع بها شُمَّ المشاكل ، وأثبتُ بها في الحق حتى يرضى الحق ، وكنت أظن أن قدرتي غير محدودة ، ومُكْنتي لا مبتوتة ولا مقدورة ، فإذا أنا من الأيام ، كل يوم في شأن جديد » .

ـ وفي الآستانة حينما ذهب الأفغاني إليها سنة ١٨٩٢ م ، واستقبله السلطان عبد الحميد استقبالاً باهراً ، وأعد له قصراً فاخراً ، ورتب له مكافأة شهرية ، عزم الأفغاني على البقاء في الآستانة ، وقربه السلطان منه وجعل يستشيره في شؤون دولته ، وتأمل أن يرشد السلطان إلى ما فيه

صلاح الدولة العثمانية والممالك الإسلامية ، ورفعة المسلمين ، وتخليصهم من أيدي الولاة الظالمين .

ومكث في جوار السلطان ، وكأنه في سجن إلى أن توفي سنة ١٣١٤ هـ/ ١٩٨٧ م ، ونقل رفاته إلى بلاد الأفغان سنة ١٣٦٣ هـ .

ـ حقاً كما قال عنه الزركلي[١] : فيلسوف الإسلام في عصره ، وأحد الرجال الأفذاذ الذين قامت على سواعدهم نهضة الشرق الحاضرة .

تنقل من أفغانستان إلى مكة حاجاً سنة ١٢٧٣ هـ ، وإلى الهند ، ومصر ، والآستانة سنة ١٢٨٥ هـ ، فجعل فيها من أعضاء مجلس المعارف ، ونفي منها سنة ١٢٨٨ هـ ، فقصد مصر ، فنفخ فيها روح النهضة الإصلاحية ، في الدين والسياسة ، وتتلمذ له نابغة مصر الشيخ محمد عبده ، وكثيرون .

ـ وأما في جانب اللغة والأدب : فإنه أحيا معالم الأدب واللغة خطابة وكتابة وأسلوباً ومعنى ، تميز بجمال اللفظ ، وقوة البيان ، ورصانة التعبير ، وشدة التأثير ، وعمق المعنى .

ومن كتبه ذات التأثير البالغ في تحريك الشعوب ضد المستعمرين كتاب « تتمة البيان في تاريخ أفغان » ، وكتاب « الخلافة » الذي صادرته الحكومة الإنجليزية في الهند ، لما فيه من المساس بها وبسياستها .

ـ ومن أجل بث أفكاره ونشر مبادئه ، أنشأ مجلة « جماعة أم القرى » في مكة المكرمة ، ومجلة « العروة الوثقى » في باريس مع تلميذه الشيخ محمد عبده ، ومجلة ضياء الخافقين في العراق ، كان فيها صوت الحق الهادر ، ومؤجج فكرة الحركة الوطنية في مصر وغيرها ، والعدو اللدود لبريطانيا ، والداعية القوي للعدل وإنقاذ الضعفاء ، وتحرير الأمة

---

(١) الأعلام : ٧/ ٣٧ .

الإسلامية ، ومفجر الثورة حيثما حل وارتحل ، وانتقل في بلاد العالم من روسيا ، إلى ألمانيا ، إلى إيران ، إلى مصر ، إلى غيرها من البلاد ، وكلما نفي من بلد ، أو ضيق عليه في إيران أو إستانبول ، ينشر مقالاته في الصحف باسم مستعار وهو « مظهر بن وضاح » .

وكان يرى أنه لابد من تعميم التعليم والثقافة ، وإطلاق الحريات ، وإعمال العقل ، والتزود من العلم العصري .

منهجه العلمي والفكري :

ركز الأفغاني نشاطه في الدين والسياسة ، أما الدين فعمل على إظهاره بفهم معمق ، وتأويل حسن ، وتجاوب مع مقتضيات العصر ، وأما السياسة فدعا إلى السياسة العادلة ، وشجب السياسة الظالمة ، وتعشق الحرية ، وكافح الاستبداد ، وصارع الاستعمار البريطاني ، ودعا إلى التحرر مستعيناً بالله وبتحرك الشعوب المناضلة ، وببيان طبائع الإنجليز وأفكارهم ، وحرّض المصريين والهنود والعثمانيين على الإنجليز ، وأثار العالم الإسلامي ، واعتمد على الوحدة الإسلامية الفعالة ، والجامعة الإسلامية المتحركة ، وقوة المسلمين الذاتية ، حيث قال : « كان للمسلمين في الحروب الصليبية آلات نارية أشباه المدافع ، فزع لها المسلمون ، وغابوا عن معرفة أسبابها »[1] .

وأما منهجه الذي اقترحه لجعل المسلمين قوة متماسكة ، سائرة في الحياة ، حريصة على أن تكون سيدة نفسها ، فيبدو في هذه الجملة : « . . . أرجو أن يكون سلطان جميع المسلمين القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين » . « إن القرآن حي لا يموت . . كتاب الله لم ينسخ ، فارجعوا

(١) تاريخ الشيخ محمد عبده ١/٣١٦ .

إليه ، وحكّموه في أحوالكم وطباعكم » .

وأسباب تخلف المسلمين الحالي فيما يأتي[١] :

١ـ ظهور البدع ، وانتشار قواعد الجبر في الأذهان والنفوس ، وحَمْل نصوص القضاء والقدر على معنى يوجب على المسلمين ألا يتحركوا إلى طلب مجد أو تخلص من ذل ، وفهم بعض الأحاديث الشريفة الدالة على فساد آخر الزمان ، مما يثبّط الهمة عن السعي وراء الإصلاح والنجاح[٢] .

٢ـ ما أدخله الزنادقة فيما بين القرنين الثالث والرابع الهجري .

٣ـ ما أحدثه السوفسطائيون الذين أنكروا مظاهر الوجود ، وعدّوها خيالات .

٤ـ ما وضعه كذبة النقل من الأحاديث ، ينسبونها إلى صاحب الشرع ﷺ عن ربه ، ويثبتونها في الكتب ، وفيها السمّ القاتل لروح الغيرة ، وإضعاف الهمم ، وفتور العزائم .

٥ـ ترك فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . قال الأفغاني : « فلو قام العلماء بهذه الفريضة زمناً قليلاً ، ووعظوا الكافة بتبيين معاني القرآن الشريف وإحيائها في نفوس المؤمنين ، رأينا لذلك أثراً في هذه الملة يبقى ذكره أبد الدهر ، وشهدنا لها يوماً يسترجع فيه مجدها في هذه الدنيا ، وهو مجد الله الأكبر »[٣] .

٦ـ تفرق المسلمين ، يقول : « أي فرق بين الأفغانيين وإخوانهم الإيرانيين ؟ كلٌّ يؤمن بالله وبما جاء به محمد ﷺ ، فعلى الأفغانيين أن

---

(١) الفكر الإسلامي الحديث ، للدكتور محمد البهي ، ص ٨٠ ، تاريخ محمد عبده ٣١٨/١ .

(٢) تاريخ محمد عبده ١/ ٣٢٤ وما بعدها .

(٣) مجموعة العروة الوثقى : ص ٢٤٤ .

يتفقوا مع إخوانهم الإيرانيين ، إذ لا اختلاف بينهم في المصالح العامة ، فالجميع من أصل واحد ، وتجمعهم رابطة واحدة ، وهي أشرف الروابط ، رابطة الدين الإسلامي » .

دعوته إلى القرآن :

يتبلور جوهر حركة الأفغاني في الدعوة إلى القرآن ، وبعث القرآن وبثّ تعاليمه الصحيحة بين الناس ، وشرحها على وجهها الثابت ، من حيث يأخذ بهم إلى ما فيه سعادتهم دنيا وأخرى .

ولابد من تهذيب علومنا ، وتنقيح مكتبتنا ، ووضع مصنفات فيها قريبة سهلة الفهم[١] .

ويقول : القرآن وحده هو سبب الهداية ، والعمدة في الدعاية ، وأما ما تجمع حوله من آراء الرجال ، واستنباطهم ، ونظرياتهم ، فينبغي ألا نعوِّل عليه بصفته وحياً ، وإنما نستأنس به بصفته رأياً .

وبهذا يكون هناك في تاريخ الجماعة الإسلامية نوعان من المصادر[٢] :

الأول : مصدر مؤكد ، هو القرآن ، وما في منزلته من السنة المتواترة والإجماع .

الثاني : ومصدر غير مؤكد ، يصح أن يستأنس به ، وهو ما تجمع حول القرآن من آراء المسلمين وشروحهم للإسلام .

وفي هذا يلتقي الأفغاني مع ابن تيمية ، ويلتقي معه ابن عبد الوهاب بعده ، والسنوسي الكبير في ليبيا .

---

(١) نظام الإسلام ، د . وهبة الزحيلي : ص ٤٤١ .

(٢) الدكتور محمد البهي ، المرجع السابق : ص ٨٢ .

أثره في الإصلاح الاجتماعي

كانت دعوة الأفغاني التجديدية في القرن الرابع عشر الهجري دعوة إصلاحية عامة ، لأنه كان يدعو إلى الإصلاح في الدنيا والدين ، ويقصد به جميع المسلمين في كل الأقطار ، وينادي فيه بالثورة على حكامهم المستعمرين والملوك المستبدين ، وعلى الجامدين من علماء الدين[١] ، ويعتمد على أصول الوحدة الإسلامية ، والجامعة الإسلامية ، ويرى أن آفة الشرق ثلاثة :

أمراؤه المستبدون ، وزعماؤه المترفون ، ومرشدوه الجاهلون[٢] . ويرى أن سعادة الأمم لا تتم بغير أمور أربعة وهي[٣] :

الأول : صفاء العقول من كدر الخرافات وصدأ الأوهام ، فإنها لو تدنس بها العقل ، لقامت حجاباً كثيفاً يحول بينه وبين حقيقة الواقع . وأول ركن بني عليه الدين الإسلامي صقل العقول بصقال التوحيد ، وتطهرها من لوث الأوهام ، فمن أهم أصوله : الاعتقاد بأن الله متفرد بتصريف الأكوان ، متوحد في خلق الفواعل والأفعال ، وأن من الواجب طرح كل ظن في إنسان أو جماد بأن له في الكون أثراً بنفع أو ضر ، أو إعطاء أو منع ، أو اعتزاز أو إذلال .

---

(١) المجددون في الإسلام ، للأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدي : ص ٤٩٥ .
(٢) تاريخ محمد عبده ١/٣٨٣ .
(٣) جمال الدين الأفغاني ، للأستاذ محمد سلام مدكور : ص ٥٩ـ٦١ .

الثاني : أن تكون الأمم نفسها مستقبلة وجهة الشرف ، طامحة إلى بلوغ الغاية منه .

الثالث : أن تكون عقائد الأمة مبنية على البراهين القويمة ، والأدلة الصحيحة ، وأن تتحامى عقولهم مطالعة الظنون في عقائدها ، وتترفع عن الاكتفاء بتقليد الآباء فيها ، فإن معتقداً لاحت العقيدة في مخيلته بلا دليل ولا حجة ، قد لا يكون موقناً ، فلا يكون مؤمناً .

الرابع : أن يكون في كل أمة طائفة يختص عملها بتعليم سائر الأمة ، ولا يألون جهداً في تبيين طرق السعادة لهم ، ثم طائفة أخرى تقوم على النفوس تتولى تهذيبها ، وتكشف عن الأوصاف الفاضلة ، وتفضح ستور الرذائل ، وتشتد في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، لذلك لم يكن السلطان عبد الحميد المحب للحكم الاستبدادي المطلق ، وخنق الحرية ، وتعطيل الدستور ، ووقف الإصلاح على وفاق مع الأفغاني .

* * *

أثره في الإصلاح الاقتصادي

كان الأفغاني حريصاً على المال العام ، ويقدر مخاطر تردي الأوضاع الاقتصادية في البلاد ، ويدرك أن ارتباك الاقتصاد يمهد لتدخل المستعمرين والسيطرة على المسلمين ، لذا رغّب في الصناعة في خطابه بدار الفنون في تركيا ، في رمضان سنة ١٢٨٧ هـ/ ١٨٧٠ م ، وكان مما قال : إن كل صناعة بمنزلة عضو من البدن ، تؤدي من المنفعة في المعيشة ما يؤديه العضو في البدن .

وقد نبَّه لهذا في مصر وتركيا وإيران ، أما في مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا ، فكان سوء الناحية المالية مستتبعاً سوء الناحية السياسية ، من فشو الظلم ، وازدياد الجور ، والتدخل الأجنبي في مصر ، وإذلال المصريين . وأما في تركيا فكان السلطان عبد العزيز منغمساً في الترف ، وكان إسرافه لا يعرف الحد ، حتى أصبحت أكثر موارد الدولة رهناً لدى الدول الأوربية لضمان القروض مع الأجانب .

وفي إيران حينما قلّت مصادر المال بسبب البذخ والإسراف في بلاط الشاه ، والانكباب على الشهوات ، واستلاب أموال الرعية ، أصبح الشاه في حاجة شديدة إلى المال ، فأخذ يتاجر بحقوق أمته ، فباع للبارون « يوليوس لوترن » سنة ١٨٨٩ م حق تأسيس بنك شاهاني إيراني ، وحق إصدار البنكنوت باسم الدولة ، وباعه حق استخراج المعادن من جميع المناجم الإيرانية ، وحق إنشاء سكة حديدية بين طهران وأهواز ، وأسرف

الشاه في منح الامتيازات وبيع حقوق البلاد ، واحتكر التنباك المستر « تالبوت » في آذار (مارس) سنة ١٨٩٠ م بإذن الشاه لمدة خمسين سنة ، بشروط بخسة ، تعود كلها على المحتكر وعلى الشاه . وكان من أقواله الخالدة : « احفظوا المال فأنتم إليه أحوج . . إن الليث لا يعدم فريسته حيثما ذهب » .

وتصدى الأفغاني لذلك ، وملأ الصحف كتابة ، والمنتديات خطابة ، للتنديد بمخاطر هذه التصرفات ، واستعدى علماء الشيعة على الشاه ، فأرسل كبير مجتهدي الشيعة الحاج ميرزا حسن الشيرازي كتاباً للشاه يبين فيه : أن إعطاء الامتيازات وبيع حقوق الأمة للأجانب ، من الأمور التي يحرمها الدين ، ثم أفتى هذا المجتهد بتحريم التنباك ، فأقفلت مخازن التنباك أبوابها .

* * *

الخاتمة

جمال الدين الأفغاني الحسيني مجدِّد القرن الرابع عشر الهجري ، وزعيم الإصلاح العام في الدين والدنيا ، في أقطار العالم الإسلامي ، ولاسيما في نطاق التجديد السياسي والعلمي اللذين يشملان جميع أنواع التجديد الذي اشتدت إليه حاجة الأمة ، وكانت عنايته في أوربة مع الشيخ محمد عبده بالتجديد السياسي أكثر ، في مجلة « العروة الوثقى » التي أصدراها في باريس وهزت العالم الإسلامي كله هزاً ، وزلزلت أقدام الدولة البريطانية زلزالاً شديداً .

ولكن كان اهتمام الأفغاني في إصلاح الأمة والسياسة أكثر من اهتمام تلميذه الشيخ محمد عبده ، وكان تأثيره أقوى ، وممارسته للعمل السياسي أوقع ، لأن الدين ينمو وينتعش بإصلاح السياسة ، فصار بحق مصلحاً دينياً ، وفيلسوفاً حكيماً ، وزعيماً سياسياً محنّكاً .

وقد حقق هذا المصلح آماله ، وكان كلما نفي من قطر يزداد التهاباً وحماساً في قطر آخر ، نفي من الهند مرتين ، ومن مصر ، ومن أفغانستان ، ومن تركيا ، فكان للنفي تأثير عكسي ، فلم يقعد عن نشاطه المتألق ، وإنما زاد اشتعالاً ، وتفجيراً للثورة حيثما حل وارتحل .

لقد مات الأفغاني رحمه الله بعد صراع عنيف مع الاستعمار الغربي ، استمر قرابة ثلاثين عاماً ، وبوفاته عن عمر الستين ، انتشر كفاحه واتجاهه في التفكير ، في جميع أنحاء العالم الإسلامي ، وبخاصة في البلاد التي تسلط عليها الأجنبي الدخيل .

ظهر أثره في مصر : في الشيخ محمد عبده ومدرسته السلفية ، وفي الجزائر : في جمعية علماء الجزائر التي أسَّسها الشيخ عبد الحميد بن باديس سنة ١٩٤٠ م ، وفي أندونيسيا : في حركة تجديد « المنار » ، وفي الهند : في جماعة أهل الحديث ، وفي ندوة العلماء لمؤسسها الشيخ المحدث محمد شبل النعماني سنة ١٩٤١ م ، وفي أزهر الهند : في مدرسة دار العلوم في « ديوبند » التي نقلت بعد تقسيم ١٩٤٨ م إلى « أكوري » في بشاور في الباكستان .

وتحقق أمله وطموحه وكفاحه بخروج الإنجليز من الهند سنة ١٩٤٧ م ، ثم في مصر في ٢٨ شباط (فبراير) سنة ١٩٢٢ م .

ويجمع كلَّ هذه الحركات هدف واحد للأفغاني : هو تحرر الوطن الإسلامي من الاستعمار الغربي ، ومحاربة الاتجاه الاستعماري في التفكير .

والحمد لله ذي العزة المتين .

* * *